فن العمارة الأندلسية وعلاقتها بالشعر في عصر بني الأحمر

أحمد ونّاسي: طالب دكتوراه
اسم ولقب المشرف : إلياس مستاري، أستاذ محاضر (أ)
مخبر :أبحاث في اللّغة والأدب الجزائري
جامعة : محمد خيضر – بسكرة –

الملخص :

يسعى هذا البحث إلى رصد بعض الجوانب الثقافية و الفكرية التي ميزت عهد بني الأحمر وحضارتهم ، ويتناول كذلك أهم خصائص عمرانهم و فنهم ، ويبيّن العلاقة القائمة بين العمران و الشعر من خلال نماذج بعض الشعراء النصريّين ، كما يحاول البحث أيضا التعرف على بعض الصيغ الفنية التي لجأ إليها الشعراء في قصائدهم ، وكذا العلاقة التي تربطها بالنقوش و الزخارف التي نمقت جدران العمارات و القصور .

الكلمات المفتاحية : الشعر ، العمارة ، الفن ، الأندلس ، بني الأحمر .

Abstract :

This research aims at spotting some of the cultural and intellectual aspects that characterized the era of Bani Al-Ahmar and their civilization. It also deals with the most important characteristics of their architecture and their art, and shows the relationship between poetry and urbanization through models of some of the Nasri poets. The research also tries to identify some artistic forms used by the poets and their relationship with the decorations and inscriptions, which scorned the walls of buildings and palaces.

Key words : Poetry , buildings , art , Andalus, Beni Alahmar .

مقدمة :

شهدت غرناطة_في عصر بني الأحمر ازدهارا منقطع النظير مس بالأخص جانبها المعماري ، وقد كان الشعر_في تلك المرحلة كغيره من الفنون يؤثر ويتأثر بالبيئة التي ينشأ بها ، وبالمحيط الذي يُنظم فيه .

والأندلس باعتباره موطنا وقطبا حضاريا بامتياز، نبغ فيه عديد من الشعراء_في زمن بني نصر ، والذين وصفوا عمرانها ومعالمها وضمَّنوا قصائدهم بجمال هاته التحف الفنّية ، والنقوش البديعة الخالدة ، و التي حاكتها أيادي مبدعيها ، وقد تفاعل الكثيرون منهم مع هذا النوع من الحضارة ، فوصفوا ما شاهدوا وصفا شاعريا تميز بجمال التشبيه ومتانة الأسلوب ، فاجتمعت بذلك مهارة البناء و براعة الشاعر ، لذلك نشأت علاقة بين دراسة فن العمارة ، ودراسة الشعر باعتباره المصدر الوحيد الذي يبحث فيها وامتزجت بذلك روعة الشعر و بلاغته ، بأدوات البناء وجمال الزخارف ، وشكلت لوحة بديعة ، عبّرت بوضوح عن رقي هذا الفن الذي ارتبط بعصر بني الأحمر و حضارتهم .

فهل استطاع الشعر الأندلسي أن يعكس مدى اهتمام حكام بني الأحمر بحضارة العمران ؟.

و ما هي الأهمية التي يكتسيها شعر العمارة_في الحفاظ على حضارات الشعوب ؟.

و فيما تتمثل العلاقة القائمة بين الشعر والعمارة من خلال بعض النماذج الشعرية المنقوشة على جدران القصور ؟.

1- الحركة الثقافية_في عصر بني الأحمر :

إن الحركة الثقافية لا تقتصر على الجانب العلمي فحسب ، و إنما تتعدّاه إلى جوانب أخرى على غرار العمران والفنون ،اللّذان يعدان كذلك مظهران من مظاهر الحياة الثقافية ، كما أن ازدهارهما يعد انعكاسا للتطور الحضاري الذي تعرفه الدولة ،لاسيما الجانب العمراني، والذي كلما تعاظم دلَّ على عظم الحضارة وعظم بانيها[1]ولذاك قيل :

هِمَمُ المُلُـوك إذا أُرَادُوا ذِكْـرَهَا * مِنْ بَعْدِهِـم فبألسـن البنيـان
إنَّ البِنَـاءَ إذَا تَعَـاظَمَ شَأنُـه * أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّان[2]

أي أن الحركة الثقافية لا تُحصر في الجانب العلمي فقط، بل تتعدى إلى كافة الجوانب ،خاصة ما تعلّق بالعمران والفنون اللذان يعد ازدهارهما انعكاسا للتطور الحضاري الذي تشهده الأمم ،لاسيما العمران، فالملوك حتى تّذكر هممهم بعد ذهابهم ،فذلك يكون بالعمران الذي شيَّدوه، كما أن هذا البُنيان إذا سادفي الدولة دلّ على مكانتها و ريادتها وعظيم شأنها.

ومن المباني العظيمة في الأندلس مدينة الزهراء ،التي شيّدها عبد الرحمن الناصر على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس، ومازالت تحتفظ باسمها العربي في اللغة الإسبانية وبنى فيها قصره المشهور بقصر الحمراء، وظهرت فيه عظمة فن الهندسة عند المسلمين وفن الزخرفة والنقوش والنحت .[3]

كان لعوامل الاستقرار و الأمن والحراك الاقتصادي، ووحدة المجتمع الأندلسي إساهمه الكبير في نمو تلك الحركة العمرانية، واللافت أن الأندلسيّين اعتمدوا على أنفسهم في كثير من هذه الإنجازات المعمارية.[4]

وكذلك استقدموا الخبراء في الهندسة من أماكن متعددة، وهذا دليل آخر على مدى اهتمام حكام المسلمين في الأندلس بهذا التطور والتقدم في فن العمارة والبناء في تلك الحقبة ، التي استطاعت فيها حضارة الأندلس أن تنافس الحضارة الأوروبية.[5]

مما يلاحظ على الأندلسيين ،أنهم اعتمدوا على أنفسهم في كثير من إنجازاتهم في ميدان العمران، ويعود الفضل في نمو حركتهم العمرانية لكثير من العوامل ،كالأمن والاستقرار واستقدام بعض الخبراء في الهندسة، ضف إلى ذلك اهتمام حكام الأندلس المسلمين بفن العمارة والبناء، وهذا ما أهَّل حضارة الأندلس لتكون منافسا قويا للأوروبيّين و حضارتهم .

بالإضافة إلى تفوق بني الأحمر في مجال العمارة عُرفوا كذلك بإتقانهم لفنون أخرى ، وبرعوا فيها، كفن الخط والزخرفة والغناء والموسيقى ،فسارت هذه الفنون جنبا إلى جنب مع تطور الحركة العلمية والعمرانية ، و أفادت منها في شتى المجلات، فكانت رائعة في الجمال والدّقة و الأداء ،ولا يزال جمالها فتانا إلى يومنا هذا.[6]

فقد برع بنوا الأحمر و أجادوا في فنون كثيرة، ولم يقتصروا على العمران فقط، بل كانت حركتهم العلمية والعمرانية سائرة جنبا إلى جنب مع هذه الفنون التي لا زال جمالها و أصالتها خير شاهدين عنها.

أقيمت في الأندلس في القرن الثالث عشر والرابع عشر المدن والمساجد والقصور على الطِّرز الإسلامية ، مما يدفعنا إلى الإقرار أن الغرب اقتبس أصول الفن في عمارته من المسلمين، إذ ليس هناك مشابهة بين الطراز الإسلامي والطراز القوطي ،و إن تأثير فن العمارة الإسلامية واضح.[7]

وهذا ما يدفعنا إلى القول أن روح العمارة في بلاد الأندلس في القرنين المذكورين إسلامية خالصة، ومنها أخذ الغرب واقتبسوا أصولها فنحن بالكاد لا نلمس أي شبه بين الطراز الإسلامي و القوطي، ومن هنا ندرك جيدا مدى تأثير فن العمارة الإسلامية في الطراز الغربي.

2- خصائص الفن المغربي الأندلسي :

يجمع مؤرخو الفن الأندلسي على أن جميع الصور المتطورة لعناصر البناء في مختلف أبنية الأندلس إنما انبثقت أصلا من بنيان المسجد الجامع بقرطبة، والتي ستبرز كقطب للفن الإسلامي، ففي مسجدها تكمن المنابت الأولى للفن الأندلسي التي أخذت في الظهور في عصر الخلافة الأموية ، ثم ترعرعت بعد ذلك في عصر الطوائف، وتفتحت براعمها في عصر دولتي المرابطين و الموحدين ، و أثمرت في عصر بني الأحمر.[8]

إن التطور الذي شهده البناء الأندلسي يعود منشؤه الأصلي إلى بنيان المسجد الجامع بقرطبة ، الذي ظهرت فيه بنية الملامح الأولى للفن الأندلسي، بدءا من عصر الخلافة الأموية، مرورا بعصر الطوائف ، ثم عصر المرابطين و الموحدين و انتهاء بعصر بني نصر، الذي آتت ثماره فيه أكلها، ووصل إلى أوجّه.

و ما يسترعي الانتباه في العمارة الإسلامية الغرناطية اعتماد البساطة من الخارج ، مع كثرة الزخارف من الداخل، و المواد المستعملة في عملية البناء و الزخرفة هي الحجارة و الآجر و الجص و الخزف والخشب و النحاس و الرخام.[9]

إنّ ما يلفت النظر في العمارة الإسلامية بغرناطة الزخارف الكثيرة من الداخل ، إلى جانب البساطة من الخارج، إضافة إلى استعمال مواد مختلفة ومتنوعة في البناء، وهذا ما جعل عمرانهم يتميز بخصوصية متفردة ، عبرت عن ذوقهم الفني و إبداعهم الفكري.

قصر الحمراء بغرناطة :

يقع بمملكة غرناطة التي تسمى أحيانا بـ " دولة بني الأحمر " و بـ " الدولة الناصرية "، وأيضا بـ " الأندلس الصغرى " وتمثل آخر المعاقل في إسبانيا.[10]

و كان قصر الحمراء تحفة من تحف الحضارة الإسلامية بالأندلس ، وشاهدا حيّا لما وصل إليه المسلمون من ذوق و إبداع و إتقان، ويفنّد كل الادعاءات و الأقاويل التي تزعم بأن العرب و المسلمين لم يضعوا بصمتهم في الحضارة الإسلامية.[11]

يدل قصر الحمراء على ذوق و براعة الفنان الأندلسي ، و هذا أحسن ردّ على المُدّعين و المشكّكين و المنتقصين من قيمة الفن الإسلامي ، و مدى مساهمة العرب في وضع بصمتهم الواضحة فيه.

كان يوجد على جدران هذا القصر الغرناطي نقوش عربية ومنها : عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله، بالإضافة إلى أشعار ابن زمرك في مدح محمد الخامس.[12]

لقد احتوى قصر الحمراء نقوشا عربية أصيلة ، تنوعت بين آيات و مقولات و قصائد، ولعل الشاعر ابن زمرك كان له نصيب وافر من هذه الأشعار خاصة ما تعلق بمدح الملك محمد الخامس.

3- الإبداع في فن العمارة والبناء لمسلمي الأندلس :

أ – العمارة :

تعد العمارة من أبرز مظاهر ونتاج الحضارة الإنسانية، وهي نتاج حضاري، بل الحضارة التي تجسد فكر المجتمع ومعتقداته، وقد اختلفت العمارة من حضارة إلى أخرى ، بسبب اختلاف أفكارها ومعتقداتها، مما أكسب كل عمارة خصوصياتها التي امتازت بها عن باقي الحضارات.[13]

نرى أن مصطلح " عمارة " هو الذي يتوافق بشكل أدق في أيامنا هذه ،مع فكرة تقديم صورة بانورامية للثقافة المرئية للإسلام في شبه جزيرة أيبيريا.[14]

إن من أهم و أبرز أوجه الحضارة التي تجسد فكر المجتمع و تفكيره – فن العمارة – التي اختلفت من مجتمع لآخر، وهذا ما طبعها بخصوصية ميزتها عن باقي الحضارات، كما أن مصطلح العمارة يتوافق مع فكرة تقديم أنصع صورة بانورامية للثقافة المرئية للإسلام بالأندلس.

ب- أسباب ازدهار العمران بالأندلس :

هناك أسباب عدة كانت وراء ازدهار العمران بالأندلس لعل أبرزها : تنافس الحكام و الأمراء في هذا المجال منذ عهد الدولة الأموية، وتواصل إلى غاية عهد بني الأحمر، الذي أظهر فيه سلاطينهم شغفا وولعا بتشييد القلاع و القصور و الحصون والمساجد .... وقد ساعدهم في ذلك الأوضاع السياسية المتدهورة بشبه الجزيرة الأيبيرية ، وهذا مردُّه إلى الصراع بين المسلمين والنصارى بشكل دائم، وهذا ما جعل السلاطين يحرصون على بناء الأبراج الشامخة، والأسوار المتينة المحيطة بالمدن و التي امتازت بقوتها وصلابتها و جمالها الذي يسحر الألباب.[15]

يمكن القول أن ازدهار العمران بالأندلس عائد إلى التنافس بين الحكام و الأمراء منذ العهود التي تسبق عهد بني الأحمر، الذين أظهر سلاطينهم ولعا شديدا بتشييد المباني المختلفة ، التي جمعت بين القوة و الصلابة و الجمال، مستفيدين من الأوضاع القائمة أنذاك كالصراع المتواصل بين المسلمين والنصارى.

وفي قصر الحمراء الملكي – الذي احتفظ به على نحو عجيب على الرغم من رهافة بنائه الشديدة – يتجلى فن غرناطة، ويكتسب خصائصه المُتَّسمة بالفخامة و العظمة.[16]

كما أن آخر آثار العمارة الإسلامية في الأندلس و أكثرها فخامة، أعني حمراء غرناطة، إنما شُيّد في عهد تلك الدولة.[17]

و قد زين صناع غرناطة المهرة الأيام الأخيرة لحضارة مشرفة على الزوال بأبدع نماذج لم تستطع أن تأتيَّ به عبقرية الإنسان وفنه في مجال الزخرفة، ذلك أنهم صنعوا بمواد فقيرة

هشة كتلا ضخمة قوية بسيطة، و أبراجا معمارية بحتة مثل برج قمارش وباب العدل في الحمراء.[18]

لقد جاءت أيادي الغرناطيين بأروع النماذج الفنّية التي تعبر عن إبداع منقطع النظير في عصر تلفظ فيه الحضارة أنفاسها الأخيرة ما يدل على عبقرية راقية في الفن المعماري الإسلامي.

على العموم كانت العمارة الأندلسية في عهد بني الأحمر إما دينية من مساجد و زوايا وكتاتيب، و إما مدنية من مدن وقصور ومتنزهات، و إما عسكرية من حصون وقلاع و أبراج.[19]

نسجل ثلاثة أصناف من العمارة الأندلسية، فقد تنوعت بين الدينية والمدنية و العسكرية وهذا يدل على اهتمام بني الأحمر بجميع الجوانب، الثقافي والاجتماعي والسياسي وهو ما ضمن لهم ازدهارا في شتى النواحي المختلفة.

ج – الفن :

مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حدثت تغيرات سياسية و اجتماعية كبيرة في الأندلس، انعكست آثارها على طريقة استخدام الفن ليكون في خدمة المجتمع والقصر، و لأول مرة في ذلك الوقت أصبح الحاكم يستمدّ رمزا للشرعية من مقتنياته من القطع الفنية الفاخرة ، وهو دليل على حسه وتذوقه للفن، ورعايته للفنانين بطريقة ضمنية، وهكذا أصبح الفن ذا مكانة اجتماعية وثقافية عالية.[20]

نتيجة لهذا التحول الذي ظهر منذ القرن 5 هـ كانت آثاره الكبيرة على الفن ، و استخدامه ليكون في خدمة المجتمع، وهنا يظهر بوضوح اهتمام الحكام بالفنّانين ،و تذوّقهم للفن الذي نال حظا بالغا عندهم.

تطور الفن الأندلسي واتخذ له طابعا أصيلا مميّزا، وكان للاتصال بالشرق بين القرنين الثاني والتاسع الهجريّين أثره في هذا التطور.[21]

وما حقّقه المسلمون في الأندلس من تطوّر بفضل فكرهم المبدع، لم تستطع شعوب كثيرة أخرى أن تحققه فكان للفن المعماري الإسلامي طابعه المميز الذي يستطيع الإنسان معرفته بسهولة.[22]

لقد كان للاحتكاك بين الأندلسيّين و المشارقة أثر واضح في تطور الفن الأندلسي، فكان للفن المعماري ميزة جليّة وانفرادية مميزة وطابع أصيل يستطيع الإنسان معرفته بسهولة واضحة ،لأنه غدا يحمل خصوصية معهودة، وهذا ما لم تقدر الكثير من الشعوب على تحقيقه.

تأثر الفن الأندلسي عموما بمجموعة من المؤثرات، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي ببلاد المغرب و المشرق الإسلامي أو بلاد أوروبا، نظرا لموقع الأندلس و تعدّد أجناسها، ورغم هذا تميّز الفن بمجموعة من المميّزات ، التي جعلته يتفرّد عن فنون الشعوب التي جاورته، نظرا لتعدد الدول وتعاقبها بالأندلس ، من الفتح الإسلامي إلى غاية عصر بني الأحمر، الذين وصلت العمارة عندهم أوجّها.[23]

رغم أن هناك الكثير من المؤثرات التي أثرت في فن الأندلسيين داخليا و خارجيا، لكن هذا لم يمنع أن يتميّز فنّهم و يأتي مخالفا عمّن جاورهم من أقوام ،وهذا مردّه إلى تعاقب دول كثيرة على الأندلس ،والتي كانت محطة بني نصر آخرها.

د – الفن والعمارة عند النصريين :

من بين جميع مناطق العالم التي حافظت على كنوز العمارة الإسلامية فيها، أو التي تحتوي آثارا فريدة ذات مهارة فائقة ابتدعها صناع مسلمون أو كانوا مُنطوين تحت لواء الإسلام ذلك القسم الذي يسمى الأندلس.[24]

وقد أخذ رعاة الفن الإسلامي في إسبانيا، وكذلك الفانون يعتمدون إلى حد كبير على الفن والعمارة ، لإعادة تأكيد الصيغة الثقافية الإسلامية.[25]

إن الأندلس تُعدّ من المناطق التي لها فضل كبير في الحفاظ على أهم معالم العمران الإسلامي ، الذي لازال رعاة الفن يحاولون جاهدين تأكيد صبغته الثقافية الإسلامية من خلال مختلف الفن و العمارة.

كانت مملكة النصريين آخر مملكة إسلامية في الأندلس قامت بعد سقوط الموحدين، فمنذ قيامها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وحتى سقوطها في سنة 897 هـ/ 1492 م، عاش حكامها على الإتاوات والتحالفات بما فيها تحالفهم مع مملكة قشتالة المسيحية، مما يدل على ضعفهم.[26]

ومع ذلك فقد ابتكر النصريّون الأعمال الفنية ذات الصبغة الترفيهية المتقنة، ومن الواضح أن هذا الفن تطوّر في عهد الموحّدين، ولكنه في عهد النصريين ازداد تطورا ونموا ، وجنح إلى الزخرفة و التجريد ، مبتعدا عن الأشكال الرصينة التي انتشرت في عهد الموحّدين.[27]

لقد اعتمد حكام بني نصر على الإتاوات والتحالفات مع من جاورهم ، وهذا راجع إلى ضعفهم بالأساس، ولكن هذا لم يمنعهم أن يبتكروا أعمالا وتُحفا فنّية، وقد اتّسم فنّهم بالجنوح إلى الزخرفة والتجريد ، بخلاف فن الموحّدين الذي طبعته الأشكال الرصينة.

4- عوامل ازدهار الحركة الشعرية في عهد بني الأحمر :

نلاحظ أن الحركة الفكرية في الأندلس – منذ النصف الأول من القرن السابع الهجري – تحاول وصل ماضيها بحاضرها، فلما نهضت مملكة غرناطة من غمرة الفوضى ، وبدأت الأندلس حياة جديدة، أخذت الحركة الفكرية بالاستقرار، وكان ملوك غرناطة جريا – على سنن ملوك الأندلس السابقين – من حماة الأدب، وكان بلاطهم يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة.[28]

سعت الحركة الفكرية لربط ماضيها بحاضرها و أخذت بالاستقرار ، وذلك بنهوض مملكة غرناطة من الفوضى التي شهدتها في تلك الفترة، كما أن ملوكها كانوا ميّالين للأدب ، وبديهي أن يكون قصرهم يشعّ بمختلف التقاليد و الآداب المتنوعة.

كانت هناك عوامل ايجابية قد أثّرت على الشعر في عصر بني الأحمر، فكان أمراء بني الأحمر يخصّصون رعاية هامة للأدب والأدباء ، وكان معظم هؤلاء الملوك إما أُدباء أو مُحبّين للأدب، ولقد كان محمد الأول يعقد مجلسا أسبوعيا لوزرائه وكتابه وقضاته وشعرائه.[29]

يظهر جليا اهتمام أمراء بني الأحمر بالأدب و الأدباء ، وهذا ما أثر إيجابا على الشعر، وقد تجسد هذا الاهتمام في المجالس الأسبوعية التي كانت تعقد للأدباء و الشعراء خاصة.

إن ملوك بني الأحمر كانوا يعتمدون على شعرائهم في كثير من المهام ،ومنهم القادة و الوزراء والجيش، ففي بعض الأحيان كان ابن الخطيب ينوب عن يوسف الأول و محمد الخامس في الملك ، و أيضا اعتمدوا عليهم في مرافقة الجيوش في الحملات العسكرية، و أيضا اعتمدوا عليهم في السفارات ، كابن الخطيب و الشريف الغرناطي وغيرهم.[30]

لعل من المُلفت اهتمام ملوك بني نصر بشعرائهم ،ويظهر ذلك في الاعتماد عليهم في كثير من المهام، كمرافقة الجيوش و السفارات ومختلف الأعمال، وهذا يدل على الثقة التي وضعوها فيهم ، وهو ما أكسبهم ثقة جعلت قرائحهم الشعرية تتفتّق أكثر.

وكان كبار العلماء و الأدباء و الشعراء يلتقون في قصور الخلفاء و الأمراء في الأندلس، فكانت بمثابة منتديات زاهرة، ومجامع للعلوم و الآداب والفنون.[31]

وقد ساعد غنى الأندلس و أمراؤها على تشجيع الأدب، فأغدقوا الأموال و الجوائز على الأدباء، وتفاوت شعر هذه الطبقة بين الجودة والضعف أو بين الضّعف والتكلّف، واتجهوا في معظم أشعارهم نحو الغزل بالجواري و الفخر و الحماسة.[32]

لقد كانت قصور الأمراء و الخلفاء بالأندلس مسرحا للسّجال الذي يجري بين الشعراء و الأدباء، كما يمكن أن نعُدها مجامعا لمختلف الفنون و الآداب في ذلك العصر، كما يظهر تشجيع الأدباء و الإغداق عليهم بالمنح والعطايا ، أما الشعر فقد تأرجح بين الجودة و التكلف وتعددت أغراضه، لكن أبرزها تمثل في الغزل بالجواري و الحماسة والفخر.

5- الشعر و العمران و العلاقة بينهما :

صاغ ابن خلدون شروطا تتعلق بآلية النّظم نفسه منها :

ضرورة بناء البيت على القافية الواحدة ،حتى يتحقق النسج الصحيح للمفردات والدلالات داخل البيت يقول : " وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه، ويبنى الكلام عليها إلى آخره، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليها وضعها في محلها، فربما تجيء نافرة قلقة ". فالقافية في الشعر عند ابن خلدون بمثابة الكلس و الطين الذي يُثبّت البنيان.[33]

لقد ركز ابن خلدون في كلامه على أهمية القافية داخل البيت الشعري، والتي يُبنى عليها الكلام إلى آخره، كما عدّها في منزلة الكلس ،والطين الذي يثبت البنيان، فكلاهما له دور هام لا نستطيع الاستغناء عنه في عملية البناء.

وكما هو معروف أن التركيب الشعري يتكوّن من الكلمة، والكلمة تتألف من أصوات متّفقة الأجزاء ، مُشكّلة وحدة والتي يكون إدراكها في الشعر مثلما يحدث عندما ننظر إلى بنية هندسية أو لوحة فنية.[34]

فالكلمة يتألف منها التركيب الشعري ، وكذا الأصوات مشكّلة وحدة، والتي لا يختلف إدراكها في الشعر عن نظيره في اللوحة الفنية أو البنية الهندسية.

يوجهنا ابن خلدون إلى فكرة عميقة مفادها أن الشعر ليس جزءا من العمران فحسب ،بل حتى هو له بنية وعمران خاص، وهو ما نستطيع تسميته بـ : (عمران النص الشعري).[35]

نستشف من كلام ابن خلدون أن الشعر و العمران كلاهما له بنية وعمران خاص ، وهو ما اصطلح عليه عمران النص الشعري، أي أن الشعر يعتمد في تركيبه على عمران قائم على الكلمات التي يتألف منها النص.

يقول ابن خلدون في مفهومه للشعر : فتركب الكلمة مع الكلمة والجملة مع الجملة، والبيت مع البيت، و إذا كان الكلس هو الذي يجمع الحجارة ببعضها البعض في البناء، فإن من يؤدي هذا الدور في الشعر هو القافية.[36]

يؤكد ابن خلدون على دور القافية في الشعر التي تقوم عمل الكلس في عملية البناء ، فحتى يستقيم هذا الأخير لابد من توفر الكلس الذي يجمع أجزاء الحجارة ببعضها ، كذلك الحال بالنسبة للشعر الذي تشترط القافية حتى يكون بناؤه مترابطا.

يقول أيضا : ولما كان الناس يلجؤون إلى زخرفة بيوتهم وتنميقها، ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين ، كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسّمة من الجص ، فإن الشعراء يتجهون إلى تنميق قصائدهم وزخرفتها.[37]

يواصل ابن خلدون مقاربته بين الشعر و العمران، فإذا كانت الجدران تنمق وتزيّن بمختلف الزخارف، فإن القصائد الشعرية أيضا تنمّق وتُحسّن بالزّخرف الفني و المحسنات البديعية و الصور البيانية التي تلبسها حلة بهيّة.

إن القصيدة الشعرية التي تأتي تراكيبها و أقوالها و الكلمات فيها متجانسة ومترابطة ، بفضل الوزن و القافية التي هي عند ابن خلدون بمثابة الكلس أو الطين الذي يعزر التحام البناء.[38]

أ- علاقة الخط بالعمارة :

كانت العلاقة بين الخط والعمارة علاقة أصيلة، اتخذت في كل إقليم وكل مدينة وكل بناء طابعا خاصا في تنوع مدهش يدل على خيال فني و فضاء فكري، وحراك ثقافي واسع، هكذا تم تطويع كافة مواد البناء من طوب وخشب وحجر وجبس في خدمة الخط في ألوان وصور وجماليات تصعب على الحصر.[39]

لقد اتّسمت العلاقة بين العمارة والخط بالأصالة، فكلّ بناء له طابع خاص ،يوحي بخيال فنّي وحركة ثقافية و فكرية واسعة، فكانت كل مواد البناء مساعدة للخط في صور متعدّدة وجماليات كثيرة.

لقد تصدر الخط أهم عناصر الأبنية على الدوام ،غير أن العمارة المعاصرة اليوم في العالم الإسلامي تقريبا فقدت كل ارتباط بين الخط و العمارة لسبب أو لآخر، ولإعادة هذا الفن الأصيل بكل ما يحمله من جماليات إلى مبانيها ، يجب أن نعيد هذه الرابطة بين الخط والعمارة.[40]

ينفرد الخط بصدارة أهم عناصر الأبنية على الدوام، لكن ما نلاحظه اليوم في عالمنا الإسلامي هو حدوث شرخ بين العمارة والخط ،فأضحت الهُوّة بينهما في اتساع متزايد، وحتى نحافظ على جماليات هذا الفن و أصالته و روعة مبانيه ، بات لزاما علينا أن نسعى لإعادة هذه الصلة التي تربط العمارة بالخط.

ب- النقوش الكتابية في قصور بني الأحمر :

كان للخطوط دور في عملية الزخرفة، وقد أولاها النصريّون عناية فائقة، فقد كثرت الكتابات المنقوشة من آيات و أشعار وشعارات وثناء على السلطان، وأقوال مختلفة ،

نجدها من الواجهات و الأبواب والجدران الداخلية والأفاريز وغيرها، والخط الكوفي الغالب على تلك الكتابات.[41]

يظهر اهتمام النصريّين بالخطوط، لما لها من دور كبير في عملية الزخرفة، لأنه كما يقال : "الخط قلب الزخرفة"، وهذا ما يلاحظ على الكتابات المنقوشة على جنبات القصر وفي مختلف المرافق، ولعلّ الخط الكوفي أبرز هذه الخطوط ،لارتباطه الوثيق بالزخرفة خاصة النباتية.

وتتجلى في الشعر المنقوش خاصية أساسية ،وهي الانسجام الحاصل بين المعمار والشعر ،فيبني الشاعر قصيدته النقشية اعتمادا على الصورة المعمارية، هكذا يجعل الشعراء من القبة عروسا وخوذا وفتاة مليحة، ومن الصهريج و البركة مرآة تبرز محاسنها وجمالها.[42]

يقول ابن زمرك :[43]

فَكَأَنِّيَ خَوْدٌ أُرِيدَ زِفَافُهَا * فَأُعِدَّ قَبْلُ التَّاجُ وَ الإِكْلِيلُ
وَ أَمَامِيَ المِرْآةُ وَهِيَ بُحَيْرَةٌ * لِمَحَاسِنِي فِي صَفْحِهَا تَشْكِيلُ

إن ابن زمرك في هذين البيتين يتحدث بلسان القصر الكبير، فيختلق صورة بديعة تتمثل في ثنائيّتين ، القصر يقابل الخود و المرآة تقابلها البحيرة، هذه الأخيرة التي ينعكس في صفحاتها الحسن والبهاء، وكأن ابن زمرك يحاول إنشاء علاقة متوازنة، تتألف من طبيعة المكان ثم يكمل انسجامها بم يضيفه عليها من تشكيل فني.

كما أن شعر النقوش يعد أيضا أرضا خصبة لمعاني المديح، حيث تتلألأ عبارات الثناء في جمل مزخرفة على جدران القصور، تتغنّى بأمجاد هؤلاء الذين قاموا بتشييدها ، و إعمارها حقبة من الزمن، ويعد ابن زمرك فارس هذا الميدان.[44]

لقد وجد بعض الشعراء ضالتهم على جدران القصور ،فنقشوا مدائحهم وعبارات الثناء والولاء للملوك الذين شيدت في عهدهم ،ولعل ابن زمرك هو أحسن من مثّل هذا الاتجاه.

لكن من البديهي أن الأشعار قد نقشت على الجدران على ارتفاع قصير، حتى يمكن قراءتها ،ولم تنقش_في القباب، كما أن هذه الأخيرة ليس بها أيّة نقوش ذات بال، وإذا ما وجدت فالأمر يقتصر على بضع كلمات مكتوبة بالخط الكوفي.[45]

ربما هنا إشارة واضحة إلى أن الشاعر الغرناطي كان يريد بهذه الأشعار المنقوشة على الجدران إيصال رسالة يقرؤها كل زائر للقصر، فلم يكتب فقط من أجل جمال القصر وتنميق جدرانه ،بل أراد أن تبقى أشعاره باقية خالدة طول الدهر.

كما نجد أن الأشكال الزخرفية بين النوافذ العليا تضم تركيبة من العقود الصغيرة المفصّصة و المستطيلات الهندسية التي تحمل نقوشا كتابية، وهذا نمط لم يكن معروفا_في الزخرفة الإسبانية الأندلسية حتى ذلك الحين.[46]

من الواضح أن الزخارف التي أبدعتها أيادي الفنانين النصريّين كانت عديدة ومتنوعة ، خاصة وأن بعضها خرج عن المألوف_في الزخرفة الإسبانية ،وهو ما يُعبّر عن ابتكار الفنان النّصري لأنواع زخرفية أخرى تناسب ميوله الفني.

ونجد نقشا كتابيا باللون الأسود على خلفية بيضاء ،عبارة عن آية قرآنية ﴿ ليغفر لك اللّهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الآية 2 سورة الفتح) ومن المعتاد أن نرى هذه الآية منقوشة_في البوابات المهمة التي ترجع إلى فترة لاحقة مثل بوابة النّبيذ_في الحمراء.[47]
وهذه النقوش بخلاف نقوش البناء الأخرى لا تواجه الناظر بحقائق واضحة، ولكنها تخاطبه بأبيات من الشعر الخيالي، أو من الوصف الهادئ الذي يميّز الشعر الأندلسي.[48]

ما يلاحظ على هذه النقوش أنها اختلفت ألوانها ،وتعدّدت أشكالها وتنوعت مضامينها ،وهذا ما زاد_في جمالها وجمال الجدران التي نمقتها.

ما يجعلنا نَصْدُق القول بأن الحمراء تسجّل لنا أفخم و أعظم طبعة لديوان الشعر العربي على مر العصور، فلم يسبق أن صدر ديوان للشعر مذهّب ومنقوش على الجص و الحجر و الرخام، ومزخرف بأروع التشكيلات الهندسية والنباتية من فنون الزخرفة العربية الإسلامية.[49]

تنفرد الحمراء بطبعة أنيقة خالدة لديوان شعري حافل، وربما يكون الأول من نوعه لأنه مطرّز بالرخام ومنقوش على جدران بأحلى الزخارف الإسلامية التي لازالت لليوم شاهدة على إبداع بني الأحمر.

6- نماذج لبعض الأشعار المرتبطة بالعمارة لشعراء بني الأحمر:

كما أشرنا سابقا، فقد شهدت غرناطة في عهد بني الأحمر ازدهارا معماريا لا نظير له شمل القصور والحصون والقلاع و المساجد و المدارس و القناطر وغيرها ، وكان الشعر الأندلسي سخيا في إعطاء الصور الرائعة لتلك المباني ، مُخلّفا لنا وصفا واقعيا لها ، ولما حوته من التماثيل والنقوش.[50]

من الواضح أن الازدهار الذي شهده عصر بني نصر في ميدان العمران، جاء شعرهم بالمقابل فيّاضا بالصّور الجميلة التي تصف تلك المباني ومختلف النقوش التي تزيّن قصورهم وهياكلهم .

لابد أن يكون وراء هذه النهضة المعمارية عمّال مهرة ، جاهدوا بأنفسهم في سبيل إقامة هذه الروائع ، وبقدر ما كان الشعر سخيا في وصف تلك الروائع ،إلا أنه يكاد يصمت أمام تصوير حياة العاملين وما عانوه في سبيل إقامة تلك المباني على هذه الصورة .[51]

يمكن إرجاع روعة هذه المباني إلى توفر عمال يتمتّعون بمهارة واضحة ،وحسّ فنّي تغلب عليه روح التفاني ، وهو ما ترجمه الشعر في صوّر فنّية بديعة ، لكنه بالكاد يخلو من تجسيد معاناة هؤلاء العمال ،و متاعبهم كي يكتمل جمال هذه المباني .

ونعرف أربعة من شعراء " ديوان الإنشاء " في عهد بني نصر ممن خلّف لنا قصائد منقوشة على جدران القصور في الحمراء وفي " جنة العريف " وهم ابن الجياب وتلميذه ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك وابن الفركون الذي تتلمذ على ابن زمرك.[52]

لقد تميّز عهد بني الأحمر بوفرة القصائد المنقوشة على جدران القصور، فنبغ فيه شعراء كثيرون ،لعلّ أبرزهم هؤلاء الأربعة الذين تمت الإشارة إليهم لكن بدرجات متفاوتة.

أ – ابن الجياب :

تتميّز قصائد ابن الجياب المنقوشة على جدران الحمراء عن بقية القصائد بوصفها للعناصر المعمارية والزخرفية ، مما يدل على حسّه الفنّي المرهف ، بالإضافة إلى أن تلك القصائد تشتمل على العديد من المصطلحات الفنّية التي تفيد وتخدم الدراسة الأثرية .[53]

لعل ما يميز ابن الجياب في قصائده المنقوشة على جدران الحمراء وصفه الدقيق لأجزاء العمارة والزخرفة ، وهذا إن دلّ على شيئ إنما يدلّ على على رهافة حسّه الفنّي ، حتّى أن المهتمّ بدراسات الآثار من شأنه أن يستفيد من هذا الزَّخم المصطلحي الفني الواضح عنده .

بعد زيارات قاعات الحمراء نخرج إلى منتزه الحمراء " جنة العريف " وفيه قصر شُيّد في أواخر القرن الثالث عشر[54]

يقول الشاعر ابن الجيّاب واصفا قصر العريف :

قَصْرٌ بَدِيعُ الحُسْنِ وَالإِحْسَانِ * لاَحَتْ عَلَيْهِ جَلالَةُ السُّلْطَانِ
رَاقَتْ مَحَاسِنَهُ وَ أَشْرَقَ نُورُهُ * وَهَمَتْ سَحَائِبُ جُوده الهَتَّانِ
رَقَمَتْ يَدُ الإِبْدَاعِ فِي أَرْجَائِهِ * وَشْياً كَمِثْلِ أَزَاهِرِ البُسْتَانِ
لاَزَالَ مَعْمُورًا بِسَعْدٍ خَالِدٍ * فِي نُورِ إِرْشَادٍ وَظِلِّ أَمَانٍ[55]

لقد أبدع ابن الجياب في وصفه لهذا القصر الذي تدل جدرانه على العظمة والكبرياء، فذكر محاسنه و أثنى على صوّر الفن والإبداع في أنحائه ، التي شبّهها برياحين وزنابق البستان في جمالها ، والتي تأسر المتأمل ، كما بيَّن في الأخير أن هذا القصر لا يزال مملوءا بسعد أبديّ في ظل الأمان والسكينة ورغد العيش .

ب – لسان الدين ابن الخطيب :

سُجّلت بعض قصائده على جدران منشآت يوسف الأول ، ولم يبق منها إلا ما تزدان به قاعة السفراء ، وهو أقل الشعراء الذين وصلت إلينا أشعارهم منقوشة على جدران الحمراء ، ويرجع الأستاذ جرثيا جومث ذلك إلى الجفوة التي حدثت بين ابن الخطيب والسلطان محمد الخامس ،التي أدّت إلى إزالة العديد من أشعاره المنقوشة على جدران الحمراء .[56]

ابن الخطيب أيضا من الشعراء الذين وردت أشعارهم منقوشة على الجدران وإن كان أقلّهم، ولعل هذا مردّه إلى سوء العلاقة بينه و بين السلطان محمد الخامس ، وهذا ما

يجعلنا نؤكد أن حسن التعامل مع السلاطين والملوك وكسب وُدّهم هو ما يجعل الشاعر يحافظ على إنتاجه الشعري عموما ، وتدوينه في بلاطهم على وجه الخصوص .

ج- ابن زمرك :

إن ابن زمرك وهو من مشاهير رجال السياسة في مملكة بني الأحمر ، قد ترك مجموعة قصائد في المدح والوصف والغزل ، فكان بارعا في الموشحات ، كما له أيضا أبياتا شعرية منقوشة على جدران قصر الحمراء ، فشعره يمتاز بالرقة وطول النَّفَس.[57]

يتضح أن ابن زمرك كانت له اليد الطولى في مملكة بني الأحمر ، كما أنه نظم قصائد في مختلف الأغراض الشعرية، ولمع في الموشحات ، ضف لى ذلك ورود كثير من أبيات شعرية له على جدران القصور ، أما شعره فامتاز بانسيابية ورقة ولطافة و نفس عميق وهذا ما جعله محل اهتمام الكثير من الحكام في عصره .

يقول ابن زمرك صراحة أنه نظم القصائد التي تزين قصر مولاه محمد الخامس ، ومن الواجب أن نعزوا له القصائد التي تزين وتُنمّق " القبة العليا " والغرفة الوحيدة الباقية من " المشور " إلى جانب القصائد الأخرى في بهو السفينة ، وفي الطاق المؤدي إليه ، والقصائد التي تزين الشرفات الشمالية و الجنوبية في ساحة القصر وواجهته.[58]

وكان ابن زمرك الوحيد من بين شعراء الأندلس في عصر بني نصر ، الذي شهد قصور الحمراء في صورتها النهائية في عصر السلطان محمد الخامس ، ولذلك جاء وصفه لقصورها وحدائقها ومبانيها متكاملا .[59]

وكان السائد حتى فترة طويلة مضت أنّ كل الأشعار المنقوشة على جدران الحمراء من نظم ابن زمرك.[60]

لعل الشاعر ابن زمرك انفرد عن أترابه بكثرة أشعاره التي وردت على جدران قصور بني الأحمر ،كما جاء وصفه متكاملا لهذه المباني والحدائق والبساتين .

ولما جاء ابن الأحمر شيّد فوق أنقاض الماضي قصرا ما يزال حتى اليوم من عجائب الفن المعماري ،الدالّ على عبقريته من شيَّده وفي قصور بني الأحمر من الروعة ما حمل ابن زمرك إلى القول[61] :

يَا مَنْ يَحِنُّ إِلىَ نَجْـدٍ وَنَادِيهَـا * غَرْنَاطَةٌ قَدْ ثَوَتْ نَجْـدٌ بَوَادِيهَا
قِفْ بِالسَّبِيكَةِ وانْظُرْ مَا بِسَاحَتِهَا * عَقِيلَةٌ وَالكَثِيبُ الفَرْدُ جَـالِيهَا
تَقَلَّدَتْ بِوِشَـاحِ النَّهْرِ وَابْتَسَمَتْ * أَزْهَارُهَا وَهِيَ حَلْيٌ فِي تَرَاقِيهَا
فَـإِنَّ حَمْرَاءَهَا وَ اللَّهُ يَكْـلَؤُهَا * يَاقُوتَةٌ فَوْقَ ذَاتِ التَّاجِ يُعْلِيهَا
بُرُوجُهَا لِبُرُوجِ الأُفْـقِ مُخْجِلَـةٌ * فَشُهْبُهَا فِي جَمَالٍ لاَ تُضَاهِيهَا[62]

يرسم ابن زمرك مشهدا في غاية الجمال، ويحن إلى زمن الأيام الخوالي في أرض نجد ،وقد طُمست ذكرياتهم، ففوق تلّة السبيكة، وبين جدران قصور بني نصر ، يحسّ المرء بانتقاله من الحاضر إلى الماضي، فلو أصغى لهذه الجدران لروت له بطولات و أمجاد، ولو أطلَّ من إحدى نوافذ الحمراء ، لأبصر الدنيا من حوله تفيض بالجمال، مروج خضراء ،بساتين و أزهار و أطيار، بروج تكاد تلامس عنان السماء، و كأن قصر الحمراء تاج على جبين غرناطة.

وقال ابن زمرك أيضا في قصر شنِّيل :

يَا قَـصْرَ شنّيل وربعك آهِل * و الرَّوْضُ مِنْكَ عَلَى الجَمال قَد اقْتَصَرَ
للّه بَحْرُكَ والصِّبَا قد سَرَّدت * مِنْهُ دُرُوعًـا تَحْتَ أَعْـلَامِ الشَّجَـرِ[63]

فقصر شنّيل الذي كان ربعه عامرا بالقاطنين، ومحاطا بالحدائق الغنّاء، ذات الأشجار الباسقة و الضلال الوارفة، و الاخضرارية التي تملأ المكان ، لم يغب عن ذهنه وجُسّد ذلك في هذين البيتين الجميلين.

تكثر في القصر الممرات والجنائن ، وتتدفّق المياه في كل مكان ، ويُعتبر لوحة فنّية مكوّنة من الآجر والجص، يقول فيه ابن زمرك :

يَا سَاكِنِي جَنَّةَ العَرِيفِ * أَسْكَنْتُم جَنَّـةَ الخُلُـودِ
وَرُبَّ طَوْدٍ بِـهِ مُنِيفٍ * أَدْرَاجُهُ الخُضْرُ كَالبُنُودِ[64]

يخاطب الشاعر في البيت الأول قاطني جنة العريف ، ويتساءل متعجّبا ، هل سكنوا رفرف الخلد ، وهذه صورة بليغة صاغها الشاعر ليُعبّر عن جمال هذه المنطقة وسحرها ، كما أنه عمد في البيت الثاني إلى تشبيه أطواد القصر الشامخة بتلك الرايات العالية في السماء ،و هذا كي ينقل لنا صورتها في أتم معناها ، بلغة سلسة بسيطة .

شهد ابن زمرك بنفسه إنجاز أهم أثر معماري وهو الجزء الأجمل من قصر الحمراء وهو "بهو السباع" ، ولعل الشاعر قد أشرف على البناء بنفسه ، لأنه كان الرجل الأول في الدولة بعد السلطان ، فلا غرو أن نجده ضمَّن في قصائده المدحية وصف هذا القصر التاريخي.[65]

لأن ابن زمرك كانت له حضوة عند السلطان ، فبديهي أن نجده قد ضمَّنه في كثير من قصائده في المدح ، وهذا عائد إلى المكانة التي احتلّها ، وملازمته لهاذا القصر بجميع مرافقه المتنوعة .

ووصف ابن زمرك بهو دار الملك للأمير أبي عبد الله والمتنزهات الجميلة يقول :

وَلِلَّهِ مَبْنَاكَ الجَمِيلَ فَإِنَّهُ يَفُوق * عَلَى حِكَـــم السَّعود المَبَانِيَـا
فَكَمْ فِيهِ لِلأَبْصَـــار مِنْ مُتَنَزَّه * تَجِدُ بِـــهِ نَفْسُ الحَلِيمِ الأَمَانِيَا
وَتَهْوَى النُّجُوم الزُّهْر لَوْ ثَبَتَتْ بِهِ * وَلَمْ تَكُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا[66]

فابن زمرك من خلال وصفه لدار هذا الملك قدم لنا صورة أنيقة ، تدل على براعته في التصوير ، ودقته في الوصف ، فبيّن لنا أنه من شدة جمال هذه الدار تمنّت حتى النجوم أن تتخلى عن السماء وتنزل إليه ، لتستمتع هي الأخرى بهذا الجمال الساحر الأخاذ .

ويستمر ابن زمرك في وصف المبنى الباهر وهذا البهو الرائع و النافورة قائلا :

بِهِ البَهْوُ قَدْ حَازَ البَهَـاءَ وَقَدْ غَدَا * بِهِ القَصْـــرُ آفَاقَ السَّمَاءِ مُبَاهِيَـا.[67]
بِهِ المَرْمَرُ المَجْـلُوُّ قَدْ شَفَّ نُـورُهُ * فَيَجْلُو مِنَ الظَّلْمَاءِ مَا كَـــانَ دَاجِيًا
وَرَاقِصَةٍ فِي البَهْوِ طَوْعَ عِنَانِهَـا * تُرَاجِعُ أَلْحَـــانَ القِيَـــانِ الغَوَانِيَا
إِذَا مَا عَلَتْ فِي الجَوِّ ثُمَّ تَحَدَّرَتْ * تُحَلَّى بِمَرْفَـــصٍ الجُمَـــانِ النَّوَاصِيَا[68]
يَذُوبُ لُجَينٌ سَـــالَ بَيْنَ جَوَاهِرٍ * غَدَا مِثْلَهَا فِي الحُسْنِ أَبْيَضَ صَافِيَا[69]
تَشَـــابَهَ جَـــازٍ لِلْعُيُونِ بِجَـــامِدٍ * فَلَمْ أَدْرِ أَيًّا مِنْهَا كَـــــانَ جَـــارِيًا[70]

يصوّر ابن زمرك هذا البهو تصويرا بديعا ، وقد استحوذ على كل البهاء، كما يذكر جمال المرمر الذي يشعّ منه النور ، فيستحيل المكان من ظلام إلى نور ساطع، لينتقل إلى النافورة الراقصة ، ويمثّلها كما لو أنها ترقص على وقع أنغام عذبة ، فتعلو ثم تتحرر، كلؤلؤ متناثر ،ولم يعد يدري أيهما كان جاريا ، جواهر المرمر ذات البياض الناصع أم لجين الماء.

أما قاعة الأختين فتزدان جدرانها بأبيات شعرية جميلة لابن زمرك ، و أيضا تصف عظمة هذا البناء منها قوله :

بِهِ القُبَّـــةُ الغَبْرَاءُ قَلَّ نَظِيـــرُهَا ❋ تَرَى الحُسْنَ فِيهَا مُسْتَكِنًّا وَبَادِيًا
وَتَهْوِي النُّجُومُ الزُّهْرُ لَوْ ثَبَتَتْ بِهَا ❋ وَلَمْ تَكُ فِي أُفُقِ السَّمَـاءِ جَوَارِياَ
فَبَيْنَ يَدِيَ مَثْوَاكَ قَامَتْ لِخِدْمَةٍ ❋ وَمَنْ خَدَمَ الأَعْلَى اسْتَفَادَ المَعَالِياَ[71]

لقد حاول ابن زمرك في هذه الأبيات الشعرية أن يقدم وصفا بديعا لهذه القاعة الجميلة ، التي يخال الملك وهو جالس بها كما لو أنه تحت قُبة السماء ، وكأن هذا السلطان اجتمعت له قُبّتان ، القبة المقرنصة ، و قبة السماء ،وهذا اعتراف من الشاعر لمدى روعة هذه القاعة المزدانة ، التي لعب خياله دورا كبيرا في وصفها.
لقد حاول شاعرنا في نقوشه الجمع بين السّمات الأسلوبية للشعر وجمال الخط و الكتابة ،وقد يكون الجمع بين الجَمالين نوعا من الإبداع المتجانس ، حاول الشاعر خلاله إجراء علاقة ما، تربط بين مجازات الشعر ورونق الفن البارز[72]. بحيث أصبحت بعض الأذواق تتطلب في اللغة ما يسعون إلى تحقيقه في فن الزخرفة.

إن ابن زمرك في نقوشه حاول جاهدا إجراء علاقة تربط الشعر بالفن ،إضافة إلى الجمع بين بعض سمات الشعر الأسلوبية وجمالية فن الخط و الكتابة، وقليلون من نحوا هذا المنحى الذي ذهب إليه هذا الشاعر.

هناك شعراء آخرون كانت لهم أشعار منقوشة على الحمراء ، وهم السلطان النّصري يوسف الثالث ، وله ديوان شعر منشور، أشار فيه إلى الأشعار الكثيرة التي أعدّها لتنقش على جدران مبانيه بقصور الحمراء ، وقد اندثرت تلك المباني وصارت أطلالا ، كذلك ابن فركون أنه هو الآخر أعدَّ بعض الأشعار لتنقش على قصور الحمراء .[73]

ليس الشعراء المذكورون آنفا هم فقط من لهم أشعار منقوشة في الحمراء ، بل هناك أسماء أخرى ممن توفر عندهم هذا النوع من الشعر ، لكن لسبب أو لآخر لم تنقش على الجدران ما جعلها تضيع وتضمحل.

الخاتمة :

نتوصل في نهاية هذا البحث إلى مجموعة من النقاط نجملها فيما يلي :

لم تقتصر الحركة الثقافية_في عهد بني الأحمر على الجانب العلمي فقط ، بل تعدت إلى مختلف الجوانب، خاصة ما تعلّق بالعمران و الفنون ، اللّذان مثّل ازدهارهما انعكاسا للتطور الحضاري_في ذلك العصر .

أن روح العمارة_في بلاد الأندلس خالصة أصيلة ، ومنها اغترف الغرب واقتبسوا أصولها، وليس كما يروّج أن الغرب هم السبّاقون إلى هذا الفن ، و من هنا ندرك جيدا مدى تأثير فن العمارة الإسلامية_في الطراز الغربي .

احتوت قصور بني الأحمر على نقوش عربية أصيلة، تنوّعت بين آيات قرآنية ومقولات و شعارات و قصائد شعرية ، ولعلّ أبرز شاعر ذاع صيته_في تدوين قصائده على جدران القصور هو ابن زمرك .

يلاحظ على بني نصر اعتمادهم على أنفسهم_في كثير من إنجازاتهم_في ميدان العمران ، وهذا مردُّه إلى بعض العوامل كالأمن و الاستقرار ، إضافة إلى اهتمام حكامهم بفن العمارة .

كان للاحتكاك بين المشارقة والأندلسيّين أثر واضح_في تطور الفن الأندلسي، فجاءت أيادي بني الأحمر بأروع النماذج الفنّية التي تُعبّر عن إبداع أصيل ، و عبقرية راقية_في الفن المعماري الإسلامي .

نُسجل ثلاثة أصناف من العمارة الأندلسية وهي : العمارة الدينية ، و العمارة المدنية ، و العمارة العسكرية ، وهذا إن دلّ على شيئ إنما يدل على اهتمام بني نصر بجميع الجوانب الثقافية ، الاجتماعية ، و السياسية .

يظهر جليا اهتمام أمراء بني الأحمر بالأدب والأدباء ، فأغدقوا عليهم بالأموال و الجوائز ، وهذا ما أثّر إيجابا على الشعر، لذا كانت قصورهم ميدانا يتبارون فيه ، ويقرضون أجود القصائد الشعرية به .

إن الشعر والعمران كلاهما له بنية وعمران خاص ، وهو ما اصطلح عليه " عمران النص الشعري " فإذا كان الكلس يجمع الحجارة ببعضها البعض_في البناء ، فالقافية أيضا تقوم بالدور نفسه_في الشعر .

يكتسي شعر العمران من ناحية التوثيق أهمية بالغة، فقد استطاع إماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية التي حجبت عن بعض المؤرخين ، و أصبح وثيقة لها قيمتها التاريخية ، نستطيع الاعتماد عليها .

إن الشعر الأندلسي ورغم احتوائه على مضامين متعددة ، بيّن لنا مدى الحضوة التي نالتها حضارة العمران، وذلك بفضل اهتمام حكام الأندلس بها .

إن الشعر الأندلسي تمكن من أن يعكس بعض انفعالات الشعراء و تصوراتهم حيال بعض أنواع الأبنية و مختلف العمران .

وعي الشاعر الأندلسي بلغته وصوره و موسيقاه ، كما جاءت لغتهم ملائمة لطبيعة الموضوع الذي يتم اختياره ،متجانسة متزنة ،متناغمة ، كما أنهم استوحوا ذلك من طبيعتهم الساحرة و بيئتهم الفاتنة ، ما جعل الرقة والانسجام و السهولة تظهر على قصائدهم .

هوامش البحث :

[1] – ينظر:عبدالقادر بوحسون : الأندلس في عهد بني الأحمر، دراسة تاريخية وثقافية (635- 897هـ / 1238- 1492 م)، أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف: لخضر عبدلي ، جامعة تلمسان، 2013، ص : 209.

[2]- محمد كرد علي : غابر الأندلس وحاضرها، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،(د ط)،2012،ص: 90.

[3]- توفيق سلطان اليوزبكي : الحضارة الإسلامية في الأندلس و أثرها في أوروبا، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد 5، العدد 20، 2010، ص : 129.

[4]- مجدي خليل محمد البردويل، الإبداع الحضاري للمسلمين في الأندلس في عهدي الإمارة و الخلافة (138- 422 هـ / 755 – 1030 م)، رسالة مقدمة استكمالا لمتطلبات الحصول على الماجستير ،إشراف:خالد يونس الخالدي، الجامعة الإسلامية ، غزة، 2014، ص ص : 80،81.

[5]- المرجع نفسه ، ص: 81.

[6] – ينظر: عبد القادر بوحسون: المرجع سابق، ص: 222.

[7]- توفيق سلطان اليوزبكي : المرجع السابق ، ص: 130

[8] – نبيلة رزقي : الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط و الأندلس القرن 7-8 هـ/13-14 م، دراسة تحليلة مقارنة ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم، إشراف:معروف بلحاج، جامعة تلمسان، 2014-2015، ص: 62.

[9] – يوسف شكري فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر – دراسة حضارية – دار الجيل، بيروت،(ط1)، 1993، ص: 153.

[10] – محمد زكريا عناني : تاريخ الأدب الأندلس، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص: 27.

[11] – عبد القادر بوحسون: المرجع السابق، ص: 216.

[12]– مريم عيساوي : غرناطة ودورها الحضاري في بلاد الأندلس، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر،إشراف: عبد القادر بوحسون ، جامعة سعيدة، ص: 78.

[13]– فلاح جبر: فن العمارة الإسلامية، (التجربة الجمالية للفن الإسلامي بالجزائر)، حميد حمادي و آخرون، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغايا ، الجزائر، 2014، ص : 95.

[14]– باسيليو بابون مالدو نادو و آخرون : العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون، المجلد الأول، تر، علي إبراهيم منوفى، مراجعة وتقديم محمد حمزة الحداد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة،(ط1)، 2005، ص : 18.

[15] – ينظر :عبد القادر بوحسون: المرجع السابق، ص: 210.

[16] – ج–س– كولان : الأندلس، تر:عبد الحميد يونس و آخرون، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، القاهرة، 1980، ص : 173.

[17] –. كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت،(ط5)، 1968، ص : 341.

[18] – ج–س– كولان : مرجع سابق، ص : 172

[19] – ينظر : عبد القادر بوحسون: المرجع السابق، ص : 210.

[20] – سلمى الخضراء الجيوسي : الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،لبنان،(ط1)، 1998،ص: 873.

[21] – مجدي خليل البردويل : المرجع السابق، ص: 73.

[22] – المرجع نفسه، ص : 73.

[23] – عبد القادر بوحسون: المرجع السابق، ص : 222.

[24] – سلمى الخضراء الجيوسي : المرجع السابق، ص: 845.

[25] – المرجع نفسه، ص : 863.

[26] – نفسه، ص : 878.

[27] – نفسه، ص : 878.

[28] – أيمن يوسف إبراهيم جرار، الحركة الشعرية في الأندلس (عصر بني الأحمر)، أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على الماجستير، إشراف:وائل أبو صالح،جامعة النجاح الوطنية، نابلس ، فلسطين، 2007، ص : 14.

[29] – صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، (د ط)، (د ت)، ص : 48.

[30] – المرجع نفسه، ص : 50.

[31] – توفيق سلطان اليوزبكي : المرجع السابق، ص: 128.
[32] – أيمن يوسف إبراهيم جرار، المرجع السابق، ص : 16.
[33] – أم كلثوم دربالي : الشعر والعمران في مقدمة ابن خلدون، مذكرة مقدمة لنيل متطلبات شهادة الماجستير لغة و أدب عربي،إشراف:هاجر مدقن جامعة ورقلة، 2014-2015، ص : 46.
[34] – المرجع نفسه، ص : 57،58.
[35] – نفسه، ص :58 .
[36] – ينظر: المرجع نفسه، ص : 58.
[37] – نفسه، ص : 58.
[38] – نفسه، ص : 62.
[39] – هاني محمد القحطاني : الكتابة و العمارة تحليل بصري تاريخي لأهم تجليات الخط العربي في العمارة الإسلامية، مجلة البحوث و الدراسات القرآنية، العدد 08، السنة الرابعة،(د ت)، ص : 353.
[40] – المرجع نفسه، ص : 353.
[41] – يوسف شكري فرحات : المرجع السابق،ص: 161.
[42] – موقع إلكتروني:السعيد دريوش:العمارة العروس في الشعر الغرناطي،الساعة:10:12،بتاريخ:2019/07/22.
/ https://www.alukah.net/literature_language/0/90361
[43] – ديوان ابن زمرك الأندلسي:جمعه:يوسف الثالث، حققه: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت،(ط 1) 1997،ص:307.
[44] – سعد محمد العزايزة،شعر النقوش عند ابن زمرك الأندلسي دراسة موضوعية فنية،مجلة الجامعة الإسلامية(سلسلة الدراسات الإنسانية)،المجلد13 ،العدد2005،02،ص:07.
[45] – باسيليون بابون مالدونادو : العمارة الإسلامية في الاندلس – عمارة القصور القرن الثاني عشر عصر المرابطين والموحدين- ، تر:علي إبراهيم المنوفي ، مراجعة:محمد حمزة الحداد،القاهرة ،(ط 1)، 2010،ص:126.
[46] – المرجع نفسه ،ص:135.
[47] – نفسه ،ص:140.
[48] – كارل بروكلمان: المرجع السابق،ص ص:342،343.
[49] – محمد عبد المنعم الجمل:قصور الحمراء –ديوان العمارة والنقوش العربية- ، تقديم:إسماعيل سراج الدين ، دراسات في الخطوط(2)، سلسلة علمية محكمة تصدر عن مكتبة الإسكندرية ، مصر ، 2004، ص :57.
[50] – عبير عبد الله أمين الحسين:الشعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر،رسالة مقدمة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجيستير في اللغة العربية،إشراف:حمدي منصور،الجامعة الأردنية ،2007،ص:196.
[51] – المرجع نفسه، ص:196.

[52] – سلمى خضراء الجيوسي:المرجع السابق،ص:943.
[53] – محمد عبد المنعم الجمل:المرجع السابق،ص:58.
[54] – عبد الحكيم ذنون:قصر الحمراء في غرناطةصرح من أيام العرب المجيدة،مجلة التراث العربي،(د ت)،ص:60.
[55] – عدنان آل طعمة، مرتضى كمال حريجة :الصورة الفنية في الأشعار المنقوشة على جدران قصر الحمراء بغرناطة،مجلة الباحث،المجلد14،العدد07،جامعة كربلاء،2015،ص:10.
[56] – محمد عبد المنعم الجمل:المرجع السابق، ص :58.
[57] – يوسف شكري فرحات:المرجع السابق،ص :152.
[58] – سلمى خضراء الجيوسي : المرجع السابق،ص:944.
[59] – محمد عبد المنعم الجمل:المرجع السابق،ص:60.
[60] – المرجع نفسه،ص :60.
[61] – يوسف شكري فرحات:المرجع السابق،ص ص:186،187.
[62] – ابن زمرك الأندلسي: المصدر السابق، ص ص:500،501.
[63] – أيمن يوسف إبراهيم جرار:المرجع السابق، ص:69.
[64] – نبيلة رزقي:المرجع السابق،ص:125
[65] – ينظر : بتول الزبير علي أحمد:عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زمرك الغرناطي،رسالة مقدمة لنيل درجة الماجيستير لغة عربية، إشراف:أسامة السيد محمد بابكر،جامعة الخرطوم،2009،ص:56.
[66] – أيمن يوسف إبراهيم جرار:المرجع السابق،ص:68.
[67] – شوقي ضيف :عصر الدول والإمارات (الأندلس)،تاريخ الأدب العربي8،دار المعارف ،القاهرة،(د ت)،ص:209
[68] – مرفض الجمان:متناثر اللؤلؤ.
[69] – اللجين:الفضة.
[70] – ابن زمرك الأندلسي:المصدر السابق،ص ص :522،532.
[71] – المصدر نفسه،ص:125.
[72] – سعد محمد العزايزة : المرجع السابق،ص:23.
[73]– ينظر: محمد عبد المنعم الجمل:المرجع السابق،ص:60.